خريطة لمنطقة الحرم المكي وتقرير هندسي عنها

الدكتور محمد حرب

أ ـــ مقدمة :

برغم ما في المصادر العثمانية والمملوكية المبكرة، من معلومات عن بدايات العلاقة بين العثمانيين وبين الحجاز، إلاّ أننا نفتقر كثيراً للمعلومات الأولية المفصّلة التي من شأنها أن تهدينا إلى تاريخ موسع لبدايات هذه العلاقة. وإن كان المعروف ـــ حتى الآن ـــ أن الأمير مراد الأول (ثالث حاكم عثماني) كان يهتم بنفسه برعاية السادة والأشراف الذين كانوا يفدون على الإمارة العثمانية(١). وتورد مجلة عثمانلي تاريخي أنجمن مجموعة سي.T.O.E.M (٢) صورة لبراءة أصدرها مراد في هذا الخصوص(٣). وتمدنا المصادر العثمانية الأولى بمعلومة تقول: إن السلطان مراد الثاني (سادس حاكم عثماني) اعتاد أن يوزع سنوياً، وبيده شخصياً، ألف فيلوري ذهباً، على كل من يمت نسبه بصلة واضحة إلى رسول الله ﷺ(٤).

رصدت المصادر العثمانية، تاريخ أول صرّة، أرسلها العثمانيون إلى مكة والمدينة، وأن ذلك

كان في عهد السلطان بايزيد الصاعقة (رابع حاكم عثمان) وابنه محملي جلبي⁽¹⁾. وأوقف السلطان مراد الثاني حاصلات قرى منطقة باليق حصار بأنقرة على مكة المكرمة، ولم ينس هذا السلطان أن يسجل تخصيصه جعلا ماليا، لفقراء مكة والمدينة في وصيته المسجلة في رجب عام ٨٥٠هـ⁽٦⁾.

يذكر عاشق باشازاده في تأريخه لآل عثمان، وكذلك المؤرخ العثماني، حديدي، في تاريخه المنظوم، أن محمداًالثاني (الرابع من سلاطين آل عثمان) الملقب بالفاتح، كان يريد أن يقوم بإصلاح وتعمير أحواض الماء الواقعة في طريق الحج، فلم يوافق المماليك ــ أصحاب السلطة السياسية وقتها ــ على رغبة الفاتح⁽٧⁾.

ب ـ أخبار تعمير منطقة الحرم المكي:

في المصادر العثمانية، والعربية تفصيلات دقيقة واسعة عن العمل في منطقة الحرم المكي، تعميراً، ابتداء من حادث السيل العظيم الذي أصاب مكة المكرمة سنة تسع وثلاثين وألف هجرية، حين دخل السيل، المسجد الحرام، فملأ غالبه. ودخل الكعبة من بابها، ووصل إلى نصف جدارها، ثم سقوط الجدار الشامي من الكعبة، وبعضاً من الجدارين الشرقي والغربي⁽٩⁾، وما قام به السلطان مراد عند ذلك من إصلاح وتعمير عام ١٠٤٠هـ = ١٦٣٠م.

تستمر مجموعتا المصادر، في تتبع أحداث الإصلاح والتعمير بالحرم المكي حتى عهد السلطان عبد العزيز بن عبد المجيد، الذي أرسل طوقاً من الفضة لتجميل الحجر الأسود، في ١٥ رمضان عام ١٢١٨⁽١٠⁾.

إلاّ أن مجموعتي المصادر العثمانية والعربية لاتقدم لنا عن مسألة ما بُذل في من تعمير في الكعبة عام ١٣٠١هـ (=١٢٩٩ رومية) في عهد عبد الحميد الثاني إلا مجرد إشارة عابرة⁽١١⁾.

وقد وفقنا الله، في العثور، في مكتبة السلطان عبد الحميد الثاني، في استانبول، على خريطة هندسية وتقرير تفصيلي عن المسألة المذكورة، وهي خريطة وتقرير رفعها القائمقام أركان حرب السيد محمد صادق، إلى السلطات العثمانية العليا، بهذا الخصوص.

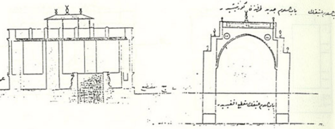

جـ ـ الخريطة والتقرير:

نبدأ بالتقرير، ويحمل تاريخ ١٧ ربيع الآخر عام ١٣٠١ من الهجرة، الموافق الثالث من شهر كانون الثاني من عام ١٢٩٩ رومية. مساحة خط التقرير ٢٤×٥٥سم.

أما الخريطة فتحمل توقيع الضابط المهندس السيد محمد صادق، لكنها تحمل تاريخ أواخر ربيع الأول من عام ١٣٠١هـ مما قد يعني أن دراسته على الواقع انتهت برسمه الخريطة. وتبلغ مساحة الخريطة في الأصل ٦٣×٩٠سم، ومقياس الرسم المستخدم في الخريطة هو ١:٢٠٠ متراً.

ملحق بالخريطة خمسة رسومات للمحقات الحرم، وتبلغ مساحتها ٥٨×٢٣سم ويبلغ مقياس الرسم المستخدم في هذه الرسوم ـ وهي في وثيقة منفصلة، يبلغ ١:١٠٠ متر.

د ـ جوهر التقرير:

يبدأ التقرير بإبراز الحاجة إلى إصلاح وتعمير في الحرم المكي، لعدة أسباب، منها: تعذر قراءة اللوحات الخطية الموجودة في الحرم المكي، وهي عشر لوحات، على مبنى زمزم، وعلى باب السلام العتيق.

ويذكر التقرير أن شكل الجدران في الحرم المكي قد أصبح ردئياً، نتيجة سقوط طلاء الجدران، ويقول أن كل الحجارة المفروشة على أرض المطاف، وعلى منطقة أسفل القباب، قد تكسرت ـ أي الحجارة ـ كما يذكر التقرير، تقلقل أكثر هذه الحجارة من أماكنها، لدرجة أنها تعوق حركة الحجيج.

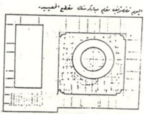

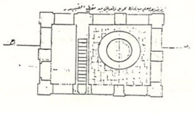

ويدعو كاتب التقرير، إلى ضرورة إعادة بناء بعض المباني مما حول الكعبة.

قال التقرير، بضرورة تجديد الرخام المفروش، في المطاف، نظراً لإصابته بالبلى والقدم، وضرورة إيجاد وسيلة تمكّن الحجاج، في منطقتي باب علي وباب العباس، من رؤية البيت المعظم، لتعذر الرؤية عليهم، بسبب وجود المباني داخل إطار الحرم.

ويرى كاتب التقرير، ضرورة تغيير أحجار البازلت المستطيلة السوداء، في منطقة ما تحت القباب، بأخرى من أحجار «تريستا».

ينتهي التقرير بإدراج ما يراه القائمقام أركان حرب والمهندس: السيد محمد صادق، ضرورياً لمشروع إصلاح وتعمير الحرم المكي، فيذكر ضرورة تجديد بناء باب السلام العتيق، وبناء المقام الحنبلي - بعد أن هُدم - على أن يكون موازياً للبيت المعظم بين الحجر الأسود وبين الركن اليماني، الذي لا بد من تجديده هو أيضاً، كما يذكر صاحب التقرير.

يطالب التقرير، بعد ذلك، بإعادة بناء بروزات غطاء الجدار الواقع في جهة البيت المعظم، ويقول بمراعاة إقامة بابين، بشبكتين، على الناحية الشرقية، وإقامة نوافذ بشبكات، في جهتي الشمال والغرب، وإقامة أسبلة لماء زمزم، ومخزن بشبكة، مخصص للأغوات، في الجهة الجنوبية، وسلّم سرّي، في حائط الفاصل المشترك، بحيث يؤدي إلى محفل المؤذنين الشوافع.

يطلب التقرير أيضاً، تزيين اللوحات الخطية، بالذهب المذاب، وطلاء بعض الأحجار، لتثبيت ألوانها، واستبدال الأحجار البازلت، بأحجار «تريستا»، وإحضار عدد (٣١٠) عمود رخامي و(٣١) باباً بأطرها الخشبية وأعمدتها، وزيادة الرمل لأماكن الصلاة، وإنشاء عدة آبار كبيرة ليصب فيها زمزم، وتحديد أماكن الصلاة للنساء بشبكة حديدية، ثم عمل ترتيبات ما يسمى بالحجر

الأساسي بحيث يحمل تاريخ التعمير والترميم، ويحمل الطغراء السلطانية؛ علامةً، واسم عبد الحميد الثاني.

وقدّر كبير المهندسين القائمقام أركان حرب السيد محمد صادق، تكاليف هذا المشروع، بمبلغ ألفين وثمانمائة وثمان وأربعين ليرة عثمانية.

هـ ـ أسماء ما أسماه التقرير، بالمقامات المباركة، الواردة في الجدول الملحق بالرسم بأرقامها في الخريطة (تعريباً عن اللغة العثمانية).

(١) الكعبة المعظمة.
(٢) باب التوبة.
(٣) باب الكعبة المعظمة.
(٤) الحجر الأسود.
(٥) الركن اليماني.
(٦) الركن الشامي.
(٧) حجر إسماعيل عليه السلام.
(٨) المزراب الذهبي.
(٩) الحطيم الشريف.
(١٠) الركن العراقي.
(١١) المحل المبارك الذي أقامه بالطين، سيدنا إبراهيم عليه السلام.
(١٢) الملتزم الشريف.
(١٣) مقام إبراهيم عليه السلام.
(١٤) المنبر الشريف.
(١٥) باب السلام العتيق.
(١٦) باب زمزم الشريف.
(١٧) مخزن شموع وشمعدانات البيت المعظم.
(١٨) سبيل سيدنا العباس رضي الله تعالى عنه.
(١٩) المقام الحنبلي.

(٢٠) المقام المالكي.
(٢١) المقام الحنفي.
(٢٢) دار الندوة.
(٢٣) المطاف الشريف.
(٢٤) الرملية التي سيتم تحديد أطرافها بشبكة؛ وهي مخصصة للنساء.
(٢٥) حدود الحرم الشريف العتيق.
(٢٦) المقام الشافعي.
(٢٧) لوحة خطية، أعلاها لفظ الجلالة (الله) وتحتها (ماء زمزم شفاء من كل داء).
(٢٨) لوحة خطية بها: (ما بيننا وبين المنافقين أنهم لا يتضلعون من زمزم).
(٢٩) لوحة خطية فيها: (ماء زمزم لما شُرب له) وفوقها لفظ الجلالة (الله).
(٣٠) لوحة خطية بها: (لا يجتمع ماء زمزم ونار جهنم في جوف عبد).
(٣١) لوحة خطية فيها كلمة (محمد) على اليمين وعلى الشمال، مزدوجةً متقابلةً مع الآية الكريمة (رب ادخلني).
(٣٢) لوحة خطية على اليمين، فيها (أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه).
(٣٣) لوحة خطية على الشمال فيها (عمر الفاروق رضي الله تعالى عنه).
(٣٤) لوحة خطية بها (الله جل جلاله) (سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين) (محمد عليه السلام).
(٣٥) لوحة خطية فيها (عثمان رضي الله تعالى عنه).
(٣٦) لوحة خطّية بها: (علي رضي الله تعالى عنه).

و ـ ترجمة خطوط الرسوم الملحقة بالخريطة: (من أعلى إلى أسفل):

منظر باب السلام العتيق من ناحية باب السلام الجديد ـ المقطع الأفقي لباب السلام العتيق ـ المقطع العمودي ب ج ـ المقطع الأفقي الذي يبين تحويل وتعديل المقام المبارك لزمزم الشريف ـ منظر المقام المبارك لزمزم الشريف اليوم، من ناحية، باب علي ـ المقطع الأفقي للمقام المبارك لزمزم الشريف اليوم ـ مقياس رسم متري يبرز مسطحات ومقاطع مقام زمزم وباب السلام العتيق ١ : ١٠٠ متر.

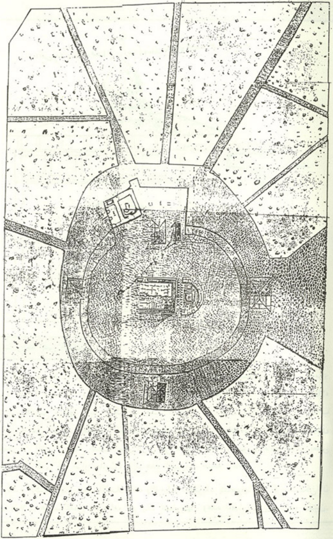

اليوم شكل شريف مقام ابراهيمك باب علي جهتندن كورنيشيدر

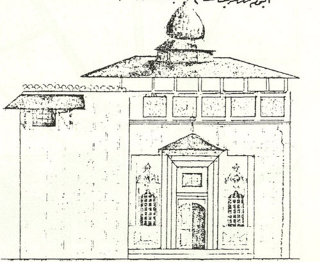

ز ـ ترجمة نص التقرير:

لم يمكن حتى الآن، ترميم وإصلاح وتعمير الحرم الشريف، المقرون بالسعادة، في مكة المكرمة، بصورة منتظمة ومتكاملة. وأصبحت اللوحات الخطية به في حالة لا يمكن قراءتها. وزال طلاء الجدران، فأصبح شكلها رديئاً. وتكسرت جميع الأحجار التي كانت مثبتة على أرض المطاف الشريف وأسفل القباب. وتقلقلت أكثر هذه الأحجار من أماكنها، وأصابها البلى، إلى درجة تعوق المسلمين عن المشي والحركة. لذلك استقر الرأي على ضرورة تجديد وتبديل وإعادة إنشاء، بعض المقامات المباركة، على طراز حديث، وإن هذه الضرورة، ملحة وعاجلة.

ونقدم الكشف التالي ببيان الإصلاحات والترميمات المطلوبة، بتفاصيلها. مع كل ما يمكن أن يكون قابلاً ـ هنا ـ للعمل والإنشاء، مع بيان بمصاريفها. وهذه المصاريف تعني أجور الفنيين.

ليرة عثمانية	تربيعا	الموضــــوع
٢٦٠	–	أجر الفنيين اللازمين للعمل وإعادة البناء على ما يظهر في الخريطة الخاصة بمقام زمزم الشريف المبارك، في مقطعيها الأفقي والعمودي.
٨٠	–	المصاريف الضرورية لتجديد بناء باب السلام العتيق، كما يبدو هذا في خريطته الخاصة في المقطع الأفقي ورسمه العمودي.
٦٠	–	مصاريف إقامة وبناء المقام الحنبلي بعد هدمه، مع مراعاة أن يكون موازياً للبيت المعظم بين الحجر الأسود والركن اليماني بعد تجديده.
٢٨٢	١٦٤٠	مصاريف إعادة تبديل رخام المطاف الشريف، ووضع وتثبيت القديم منه، في الصحن الواقع في الجانب الأعلى من المطاف المذكور.
١٢٠	٦١٦٧	مصاريف الدهان في داخل وخارج وأسفل القباب ١٨٥٨ ليرة: البويا بالزيت المقاومة لتأثير الجو. ٤٣٠٩ ليرة: البويا المائية التي ستكون تحت القباب.
٦٦٠	١٣٣	مصاريف الفنيين في حل محاريب الأبواب، وتزيينها بالذهب، يدخل في هذا لوحات الخط الموجودة داخله وخارجه.
٩٨٠	٩٨٠٦	مصاريف الفنيين لتثبيت ما تحت القباب كله، والطرق المؤدية إلى البيت المعظم، بالرصف العادي، وفرشها وتثبيتها بأحجار تريستا.
١٠٠	–	مصاريف فرش وزيادة الرمل على المكان الرملي الكائن في محل الصلاة العام.
١٠٠	–	مصاريف مسح الأعمدة الرخامية وعددها (٣١٠).
٥٠	–	مصاريف مسح أقواس وإطارات عدد (٣١) باب.
١٥٠	–	مصاريف تجديد وحفر وتشغيل مجموعة آبار كبيرة تحت زمزم الشريف.
٥٠	–	مصاريف تجديد المصلى الخاص بالنساء بشبكة حديدية في جهاته الأربعة، كما يظهر هذا في خريطته الخاصة.
٣٠٠	–	مصاريف التبييض والتنكيل وأجر النقاشين الفنيين في مقام إبراهيم والمقامات الأخرى.

ليرة عثمانية	تربيعا	الموضـــوع
٢٠٠	–	مصاريف متفرقة وغيرها.
٥٠	–	مصاريف وضع الحجر المُبَيِّن به اسم جناب حامي الخلافة وتاريخه، مع تاريخ هذه الإصلاحات والإنشاءات.

لا يستطيع المسلمون مشاهدة البيت المعظم، عندما يكونون في باب علي وباب العباس. لأن الأبنية الحاضرة تمنع هذه الرؤية، وتحول دونها، كما يتضح في الرسم الخاص بالمقام المبارك لزمزم الشريف، وهو بدوره، داخل نطاق ما سيجري به العمل إصلاحاً وتشييداً. وقد مالت إلى الانهدام، بروزات غطاء الجدار الواقع في جهة البيت المعظم، وتكسرت. ووصل الأمر إلى عدم إمكان إصلاحها وترميمها. على هذا رؤى وجوب بنائها من جديد.

بناء على هذا، وكما ستيضح لنظركم السامي، في المقطع الأفقي للمقام المذكور، فقد روعي عند العمل والبناء في المقام المذكور، الاهتمام بعملية الترتيب والتقسيم فيه، على أساس إقامة بابين بشبكتين، على الوجه الواقع في الجهة الشرقية، وعمل نوافذ ذات شبكات أيضاً في جهتي الشمال والغرب، وإقامة أسبلة ماء زمزم داخلية، صنابيرها من تحتها، ومخزن بشبكةٍ، مُخصص للأغوات، في الجهة الجنوبية، وسلّم خاص في حائط الفاصل المشترك، يؤدي إلى محفل المؤذنين الشوافع.

أما تعيين، وتنسيب أصول وقواعد الإنشاءات والتزيينات، والمواد الأخرى المناسبة للمقام [المذكور] فأمر يرجع إلى دار السعادة [الآستانة ، العاصمة] وما هو خاص هنا [بنا] [يكمن] في وضع وإقامة [هذا] في أمكنته.

أصاب البلى والقدم، الرخام المفروش في المطاف الشريف. لذلك قامت دار السعادة [العاصمة] بالتنبيه بتجديده، ووضع الصالح من قديمه، في الصحن الواقع في الجانب الأعلى من المطاف المذكور، وتجهيز الرخام والمواد الأخرى اللازمة للعمل فيه و[علينا] هنا، وضعه وإقراره فقط، في أمكنته.

واضح أن أحجار الشوميسي قد استخدمت [من قبل] في أعمال إنشاءات الأبنية العالية في الحرم الشريف الأليف السعادة، وفي جدرانه؛ بما فيه من أقواس داخلية وخارجية. إن طبيعة هذا الحجر رخوة، وخالية من المادة الاسفنجية، وسهلة النحت، ولون هذا الحجر عند خروجه من الموقد يكون أصفر شديد الصفرة. وهذا اللون يتحول تحت تأثير الهواء والشمس، من اللون الأصفر الشديد الاصفرار إلى الأصفر الفاتح، ويبهت لونه ويذبل. ثم إنه يتأثر بالرطوبة، فيتساقط. لذلك، لا بد من ضرورة المحافظة عليه بطلائه بالبويا، ولأن دهانه لم يتم حتى الآن، وفق قواعد منتظمة، فقد رؤى أن الحاجة ماسة لتجديد دهانها كلها والعمل فيها وتزيين عموم اللوحات الموجودة في الداخل وفي الخارج، والأبواب والمحاريب، بالذهب المذاب. أمّا إحضار هذا الذهب والبويا والمواد الأخرى، وتهيئتها، وإعدادها، فهي أمور تتعلق بدار السعادة، وما علينا هنا إلاّ الطلاء فقط.

إن الطرق والأماكن الكائنة تحت القباب، مفروشة، كلها، بأحجار الرصف المستطيلة، وبالأحجار السوداء. ويعطي وجود الشقوق في الأطراف، الإحساس دائماً، بالحاجة إلى تصليحها، ونظراً لأن هذا يتم سنوياً، بعد صرف عدة مبالغ، فلذلك يلزم تجديدها بأحجار تريستا، حيث توضع هنا، وتثبت في أماكنها.

ويرجى من دار السعادة التقدم بتصويب وتنسيب مسح ثلاثمائة وعشرة أعمدة من الرخام، وواحد وثلاثين باباً بأطرها الخشبية وأعمدتها، وزيادة الرمل لكل أماكن الصلاة، وحفر وإعادة إنشاء عدة آبار كبيرة تحت زمزم الشريف ونوافق على مصاريف الدهان والنقل وتحديد الجهات الأربع للمكان الرملي المخصص للنساء بشبكة حديدية وتتفضل كذلك بالاعلام باسم حضرة السلطان مع تاريخ التعمير والإنشاءات السامية.

وعمل التزيينات الخاصة بحجر التاريخ الذي تزينه الطغراء العثمانية، وسائر ترتيباته الأخرى، على أن يقام، ويوضع فوق وسط الضلع الأصغر، الواقع في جهة باب السلام، وعلينا هنا أن نقيمه في محله.

وعليه، فإن المصاريف المتوقعة، وكذلك المصاريف المختلفة الأخرى، تبلغ ألفين وثمان مائة وأربعين ليرة عثمانية، والمسألة [بعد ذلك] منوطة بالهمة العالية لجناب المشير الأفخم.

والأمر، في هذا، وفي كل الأمور، موكول لحضرة من له الأمر .

١٧ ربيع الآخر سنة ٣٠١ [الموافق] ٣ كانون الثاني سنة ٩٩ .

القائمقام أركان حرب والقائم بمنصب كبير المهندسين
السيد محمد صادق

مصادر المقدمة وأخبار تعمير منطقة الحرم المكي

(١) إسماعيل حقي أوزون جارشيلي، مكة مكرمة أميرلري، ص١٣، أنقرة ١٩٧٢.

(٢) عثمانلي تاريخي أنجمن مجموعة سي .T.O.E.M ، السنة الخامسة، ص ٢٤٤.

(٣) إسماعيل حقي، المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٤) عاشق باشا زاده، تواريخ آل عثمان، ص ١٩٦، استانبول ١٣٣٢.

(٥) إسماعيل سرهنك، حدائق الأخبار عن دول البحار، جـ١، ص٥٠٥، مصر ١٣١٢.

(٦) انظر الشكل اللاتيني للوصية في، إسماعيل حقي أوزون جارشيلي، المرجع السابق نفس الصفحة.

(٧) عاشق باشا زاده، المصدر السابق ص ٢٠٨ وكذلك، حديدي، تواريخ آل عثمان، مخطوط تركي منظوم، مكتبة أسعد أفندي بالسليمانية رقم ٢٠٨١، ورقة ١٥٤/ب.

(٨) انظر في هذا الخصوص قائمة متكاملة في، حسين عبدالله باسلامة، تاريخ الكعبة المعظمة، عمارتها وكسوتها وسدانتها، جدة ١٣٥٤، حيث يورد ٦٨ مرجعاً بين مخطوط ومطبوع.

(٩) انظر، حسين عبدالله باسلامة، المرجع السابق ص ٩٢.

(١٠) حسين باسلامة، المرجع السابق ص ١٠٧.

(١١) يقول حسين باسلامة العبارة التالية: (وجاء في الفتوحات الإسلامية للسيد أحمد الدحلان أنه في سنة ١٢٩٩ عمّر السلطان عبد الحميد خان الثاني العثماني بن السلطان عبد المجيد خان في الكعبة المعظمة، وفرش باطنها بالرخام، ولم يبين الخراب الذي عمّره السلطان عبد الحميد في الكعبة مفصّلا، بل ذكره على سبيل الإجمال... ص ٢٢٣.